فى عالم الشعر

ذات مرة قال الشاعر الفرنسى المتعدد الجوانب جان كوكتو :

« الشعر لا غنى عنه ، وليتنى أعرف السبب » !

وكانت عبارة كوكتو هذه تعبيراً عن ميله الشخصى إلى المراوغة ؛ فلاشك أنه كان يعرف دور الشعر ، أو على الأقل كان يعرف : لماذا يكتب ؟ وهو نفسه قد قال فى إحدى قصائده الباكرة :

الشاعر لا يحلم ، بل يحصى

والفن هو العلم الذى يصنع اللحم

وهاكم دور الشعر : إنه يكشف ويعرى بكل معنى الكلمة .

ولكن بعض النقاد فسر عبارته السابقة بأنها تعبير عن حيرة الشاعر الحديث إزاء تحديد جدوى الشعر ، وهذا أيضا نوع من المراوغة ؛ فلا شك أن الشاعر الحديث يعرف جيداً أن الشعر تعبير عن رؤيته الخاصة مهما كان اتجاه هذه الرؤية وأبعادها ؛ كما يعرف أنه يكتب الشعر لكى يفهم نفسه أولاً لا لكى يفهمه غيره على حد تعبير الشاعر الإنجليزى سيسيل داى لويس . وإذا كان كوكتو قد أمسك بسكين حادة وراح يمزق بها الأشياء ويعريها فى شعره فهو قد فعل ذلك تعبيراً عن الميل العام الحديث إلى الكشف والارتياد والتعرية .

* * *

والشعر كالحُب لا يقبل التعريفات الجامدة ولا الجامعة المانعة ، وهو أيضا كالحب لا يقبل المنطق الذى تواضع عليه المناطقة أو الناس ؛ لأن له منطقه الخاص الذى يتغير من عصر إلى عصر ومن شاعر إلى شاعر ؛ حتى داخل اللغة الواحدة ، ولكن أبسط تعريف له وأعقده فى الوقت نفسه هو ما لخصه البعض فى قولهم : إنه الفن المعادى للنثر !

* * *

والشعر فى أصله وعلى مدار تاريخه ، وربما إلى الأبد — هو الغناء ، غناء الآمال أو الآلام . والآمال والآلام منبعها الإنسان ومصبها الإنسان أيضاً ؛ فليس من الغريب إذن أن يكون الشعر هو أول الفنون المنطوقة التى عرفها الإنسان . وعندما عرف الإنسان اللغة بدأ يعرف الغناء ، ومن الغناء ولد الشعر .

والشعر له عالمه الخاص الذى هو فى أساسه عالم الإنسان أيضاً ، ولكن عالم الشعر نسخة خصوصية جداً – ونسبية أيضا – من عالم الإنسان . ولا غنى لأحدهما عن الآخر ، ولا فضل لأحدهما على الآخر إلا بما يحمل من معنى للآخر ، وما يحدث من أثر . . فى الآخر أيضا .

* * *

ومنذ الثورة الصناعية والثورة الاجتماعية فى أوربا فى القرن الثامن عشر بدأ ما يسمى العصر الحديث الذى ما زلنا نعيش فى ظله حتى اليوم . ومع العصر الحديث الذى حمل مفاهيم جديدة غيّر بها وجه الحياة فى العالم كان لا بد من الشعر الحديث : أى الشعر الذى يواكب عصره من كل النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها . وكما تباين رد فعل الناس فى العالم كله لمفهوم الحداثة الأوربى تباين أيضاً رد فعل الشعراء واختلف من مكان إلى مكان .

* * *

ولأننا نعيش فى ظل العصر الحديث ؛ ولأن للشعر عالماً كما قلنا – فنحن إذن نعيش فى عالم الشعر الحديث . وإذا كان التاريخ المعاصر يبدأ عادة بإنتهاء الحرب العالمية الثانية فالشعر الذى يكتب حالياً فى العالم هو الشعر المعاصر ، وهو نفسه جزء من الشعر الحديث أو امتداد له مثلما يكون التاريخ المعاصر جزءاً من التاريخ الحديث وامتداداً له . فمصطلح الشعر الحديث إذن أشمل وأعم . وعلى الرغم من أن التاريخ الحديث نفسه يعتبر فترة محدودة بالقياس إلى التاريخ الطويل للإنسان فإن عالم الشعر الحديث ليس محدوداً على الإطلاق ؛ لأنه – أساساً – عالم الداخل والباطن الذى عرته سكاكين الشعراء .

* * *

وهذا الكتاب سياحة برية فى هذا العالم ، عالم الشعر ، ولكن أى شعر ؟ لأى عصر ؟ سنركز على شعر العصر الحديث . ولأن الشعر لا ينفصل عن الشعراء ، والعكس صحيح ، وكلاهما بديهيان – فسيكون دليلنا فى هذه السياحة هو الشعراء أنفسهم ، ولأن الشعر الحديث بدأ فى أوربا ، وهو أمر بديهى أيضا فسيكون شعراؤنا الأدلاء أوربيين قلباً وقالباً ، ولكنى اكتشفت – بعد هذه السياحة التى قمت بها وحدى فى البداية – أن عندنا نحن غير الأوربيين مفاهيم فى تصور الشعر سابقة بكثير على هذه المفاهيم الأوربية الحديثة .

ولأن عملى فى هذا الكتاب كان السياحة كما قلت فقد اخترت سائحاً عربياً قديماً قام بسياحة مماثلة داخل عالم الشعر العربى ، وهو ابن رشيق صاحب كتاب « العمدة فى محاسن الشعر وآدابه » وقمت بسياحة أخرى جديدة داخل كتابه هذا ، ولم أحاول أن أتوقف كثيراً عند الآراء والأفكار

السطحية أو المستهلكة مما حفل به الكتاب ، ولكنى حاولت منذ بدء سياحتى فيه أن أستخرج خلاصة نظرية لما كان عليه التصور العربى القديم للشعر . وكان فى يدى طوال هذه السياحة معناطيس أوربى إذا صح التعبير كونته مما خلصت به فى سياحتى داخل عالم الشعر الحديث فى أوربا ، وجعلته يلتقط من « العمدة » كل ما يتصل بالحداثة الأوربية فى الشعر ، فإذا بى فى النهاية ، ومن كتاب واحد هو « العمدة » بجزأيه أخرج بفكرة أعتقد أنها صائبة ، وهى أن الحداثة لا يمكن أن تكون فكرة فحسب ؛ وإنما لا بد أن يتبع الفكرة العمل أو التطبيق أو الممارسة .

ويبدو أننا فكرنا كثيراً – على طول تاريخ الشعر العربى – وعملنا قليلاً ؛ حتى نسينا فى العصور الأخيرة الأفكار نفسها ؛ ثم انتظرنا حتى اتصلنابأوربا فأخذنا عنها الكثير من أفكارها . ولا غبار على هذا فالحضارة أخذ وعطاء ، ولكن الغبار كل الغبار على الشعور بالقصور الذى جعل بعضنا يعتقد أن ما جاء به العقل الأوربى فتح ما بعده فتح !

سنرى فى تأملات بن رشيق الصائبة خلاصة لما قد يسمى النظرية الأوربية فى الشعر الحديث ، وسنرى أيضا فى قول ابن رشيق « ليكن الشعر تحت حكمك ولا تكن تحت حكمه » – خلاصة هذه الخلاصة . ولهذا بدأت بتأملات ابن رشيق الصائبة التى استخلصتها من كتابه ، ثم أتبعتها كثيراً من تأملات الأوربيين والأمريكيين والأفريقيين وبعض ممارساتهم . وأرجو أن يحفز هذا العمل غيرى من المهتمين بقضية الشعر الحديث على تطويره وبلورته ؛ فما الشعر « إلا ما علمتم وذقتم » إذا صح أن نحور ما قاله زهير بن أبى سلمى عن الحرب !

على شلش

القاهرة : أكتوبر ١٩٧٨